مجلة الرستمية ISSN 2716-9138
المجلد : 02 العدد : 02 السنة : 2021

التفكير الحجاجي للسفسطائية

Argumentative Thinking of Sophism

حمر العين زهور

جامعة ابن خلدون –تيارت – (الجزائر)

البريد الإلكتروني: hameurlainezhor@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2021-11-10	تاريخ القبول: 2021-11-04	تاريخ النشر: 2021-12-01

الملخص:

أعادت البلاغة الجديدة القيمة بل والحياة للتفكير السفسطائي. فلم تعد السّفسطائية منذ كتاب بيرلمان وتيتيكا "مصنف الحجاج " 1958 ينظر إليها و إلى فكرها بازدراء بل أصبحت فاتحة للخطاب الحجاجي من أكثر من وجهة نظر. فكون الإنسان مقياس الأشياء جميعا يفتح باب الحرية و الديمقراطية . يحترم النظام الديمقراطي حرية الشخص الإنسان بالدّرجة الأولى إذ عليه أن يحترم كونه إنسانا أو وفق ما يسميه فلاسفة التنوير بالحق الطبيعي وهذه الحرية إنّما تتمظهر في طوابع لغوية للتعبير والمطالبة بالحقوق على لسان ممثلي هؤلاء الأفراد أو بواسطة الأفراد أنفسهم .الأمر الذي برع فيه المحامون وعلى إثر هذا كان اهتمام السّفسطائي باللغة ، وأساليب الإقناع في استمالة الجمهور وفي الاختيار الحجج. الأمر الذي يبعث الحياة للعلامة فأصبح الخطاب نتيجة دوره الجديد ينتج خطابا جديدا والعلامة تنتج علامة. و لم يبق التفكير كما كان عليه غارقا في التفسير الماورائي .بل أكثر واقعية ،اجتماعية ومنطقية.

الكلمات المفتاحية : الحجاج ، السفسطائية ، الإقناع ، الخطاب، البلاغة.

Abstract:

The new rhetoric has given back the value and even the life to sophism thought. Because from the appearance of the book "The Treatment of Argumentation" 1958; this thought is not frowned upon as before. It has become an inauguration of argumentative discourse. His expression "man is the measure of everything" has taken on different points of view among democracy. Freedom that respects human beings in themselves from what the philosophers of light call natural law; or its appearance in the expressive frame. The sophistry has tried to extinguish its purpose when it gives importance to language and argument. Then the speech produces a new speech and the sign produces a new one.

Keywords: argumentation, sophistry, persuasion, discourse, rhetoric.

تمهيد:

إنّ المركزية الفردية وجعل الإنسان مقياس الأشياء جميعا، إنما ينم عن اهتمام السفسطائي بالجانب النّفسي والإلمام بطبيعة المركزية .وهذه المركزية التي فتحت باب تعدد الحقائق ومن ثمة كان فتحا لفكر ديمقراطي - ليس بالمفهوم المعاصر –شدّ إليه المسؤولين السياسيين والقضاة في حل النزاعات والعمل على إحكام السيطرة على الشعب.

أمّا الاهتمام بهذا الجانب النفسي فكان من نتائج الدّعوى إلى ضرورة تهيئة الظروف والمكان مناسب لإعطاء دروسهم مقابل مبالغ مالية ليست في متناول الجميع مما يجعل التعليم للنخبة. لقد أنيط للسفسطائيين بهذه المهمة لضلوعهم في البلاغة والخطابة لكن السؤال الذي يمكن طرحه:

إذا كان السفسطائيون على هذا القدر من سلطان القول لما هذه العداوة التي جاءت من سقراط وعلى لسان أفلاطون؟

"إن العلامة التي كان يدافع بها وعليها الخطاب البلاغي السّوفسطائي أفرزت اتجاها مضادا لها؛ لأنه لم يتعامل مع اللّوغوس على أنّه وحدة بين الخطاب والعقل وبين النطق والمنطق. إذ ط أننا لا نكاد منأمل خطابيا أيما كان مجال هذا الخطاب ألاّ وكان الحجاج حاضرا . وفي كل جراك سياسي واجتماعي وفني وأدبي سواءا تعلق الأمر بترجمة السلوك أو بالخطاب كخطاب بما يحمله اللفظ من معنى كان الحجاج حاضرا"(زهور حمر العين،الحجاج المفهوم والأسلوب، ص11-19) وهذه القراءة المعاكسة مارست عليها الحجر؛ وقدمتها لتاريخ الفكر البشري على النحو الذي ارتضاه لها الخصوم" (يوسف، 2010، ص 11) ولعل من أشهر المفارقات التي عرفتها البلاغة السفسطائية والتي تحمل السامع إلى التهكم مما يعني هباء العلامة وتهافت الحقيقة مثل: خاسر هو رابح في مفارقة المحامي بين (كوراكس وتيزياس) فطرفي النّزاع ,الأستاذ وإن خسر فهو رابح بحكم العقد والتلميذ وإن خسر فهو رابح بحكم العقد أيضا (بلانتان، 2010، ص 10). إلّا أن الآلية الحجاجية المستخدم في هذه المفارقة تكشف عن مستوى بلاغي كان أرضية خصبة ليس لظهور علم البلاغة والخطابة فحسب بل والمنطق الأرسطي بما ينبى عليه من أرضية خصبة فلا يمكن أن يكون قد نشأ في أرض تخلو من التخصيب السفسطائي فإن كانت المغالطات السّوفسطائية جاءت على هذا النّحو كما جاء على لسان –أفلاطون- فمنهم كانوا على وعي بهذا. إذا ذهبنا مذهب خصوم السّفسطائية- بل إنّهم كانو قادرون على تمييز الحدود والتّعريفات التي

ستكون الخطوة الأولى للمنطق وإن لم ينّظروا لها فهذا كان سرّ مهنتهم من جهة ومن جهة أخرى لم يكن الاهتمام بالكتابة آنذاك وارداً لديهم لا سيما وأن تعليمهم للأفراد كان ذا نزعة مادية وتحصيل للثروة.

أ-**الديمقراطية:**

يحترم النظام الديمقراطي حرية الشخص الإنسان بالدّرجة الأولى إذ عليه أن يحترم كونه إنسانا أو وفق ما يسميه فلاسفة التنوير بالحق الطبيعي وهذه الحرية إنما تتمظهر في طوابع لغوية للتعبير والمطالبة بالحقوق على لسان ممثلي هؤلاء الأفراد أو بواسطة الأفراد أنفسهم الأمر الذي لا يكون ناجحا، أو قد شخص هذه المطالب في صيغة مقولة "منطوق"- على اعتبار المشافهة السّفسطائية- الغير مناسب سواء تعلق الأمر بالخطيب أو بالجمهور فعلى الخطيب من أجل بلوغ غايته أن يكون بليغا إذ "تمتلك البلاغة من حيث هي خطاب القدرة على تعبئة النّفوس وتحريك العواطف واستماله الوجدان" (يوسف، 2010، ص 12) إن ارتباط البلاغة بمناخ السياسي جعل من الحجاج آلية إقناعية سعى لاستمالة النفوس والتأثير في الآراء الأمر الذي وجه اهتمام السفسطائي إلى علم الخطاب. يذكر أحمد يوسف "إن ما هو ممكن معرفيا " لدى السّفسطائي هو "علم الخطاب" الذي يتجسد في البلاغة بما تشتمل عليه من كفاءات الإقناع عبر مظهرها المنطقي وبراعة الأسلوب الذي لازم جورجياس أكثر من بروتاغوراس. ولكن هذا المنطق لا يبحث عن الصدق بقدر ما يهدف إلى التّأثير في المستمع والهيمنة عليه بحلاوة اللّسان وجمال الفصاحة وفتنة العبارة. ولهذا كانت حججها "ظنية وتخمينية" (يوسف، 2010، ص 12) وذلك على اعتبار أن ما يشوبه الظن يكون موقع احتمال فإذا ما توفرت له الحجة وفق أسلوب بلاغي ومهارة لسانية خطابية لما تقتضيه الخطاب من قوة للإصغاء والرغبة في الخروج من هذا المحتمل إلى الإقتناع طالما توفرت وسائل الإقناع بل "متى تعلق المحتمل بأمور بشرية فإنّه يطابق عادات مجموعة ما، ويمكّن هذا المفهوم من استخراج قوالب جاهزة ولكن أيضا من استخراج أنماط ويعلنّ عن ظهور تفكير علمي غير مختص حول سلوك النّاس في المجتمع" (بلانتان، 2010، ص 14).

الديمقراطية السّفسطائية التي جعلت من الإنسان مقياس الأشياء جميعا وعليه فهو وحده القادر على معرفة الصواب والخطأ،وهذه الذاتية في طبيعة المعرفة تقتضي روح تنافسية كبيرة سلاحها الأساسي الأول هي قوة الخطاب الذي وجد له مدرسة وإن كانت المدرسة السّوفسطائية لم تسجل

تعاليمها اللّغوية- وسط السفسطائيين وإن افترضنا بصدق ما يذهب إليه سقراط وأفلاطون فلا شك أن قدرة استمالتهم للجمهور بما يمتلكونه من كفاءة لغوية وحسن العبارة وقوة الخطاب جعلهم مركز تهديد لما كان يدعو إليه التفكير اليوناني ممثلا من سقراط وأفلاطون ويكفي أن جعلّهم أفلاطون في محاوراتهم أهم محاوري سقراط كما "كانت تتاح لهم فسحة في بهو المدينة ليمارسوا حقهم في الكلام ممارسة حرّة. وكان لهم إحساس ببناء الدولة وإعداد القادة والسياسة وتعليمهم كيف يحكمون بالكلام والخطابة، إن الكلام والخطابة شكل من أشكال الحجاج –حتى وإن كان بالمغالطات- له تأثير في عواطف شركاء وأحوالهم النّفسية وأهوائهم الخاصة وتحويل اقتناعاتهم إلى الوجهة المرادة".(يوسف، 2010، ص 14)

السفسطائية الإبتداء المادي والنهاية المعرفية:

بالرغم مما جيء على لسان سقراط الأفلاطوني من نقد للسفسطائية لاسيما في اقتصار التعليم النخبة ومقابل الثروة مما يجرّدها من صفة الحكمة التي ترى في أن الحكيم يرى في تعليم المعرفة من أجل المعرفة. إلاّ أن هذا لم يقف حائلاً أمام الفكر السفسطائي في أن يؤسس للفلسفة وللمعرفة في جميع جوانبها.

1)الإنسان مقياس الأشياء جميعاً والبعد الأنطولوجي:

2)لقد شاع في التفكير الفلسفي للسفسطائية إنزال الفلسفة من السماء إلى الطبيعة ثم من الطبيعة إلى الإنسان لكن ما الذي يبرّر هذه السمة الواقعية إذا كان سقراط إنما راح يبني أسس تفكيره- مع كل من أفلاطون وأرسطو- ليرّد مقولات السفسطائي ولاسيما أن حضور السفسطائي كمحاور لأفلاطون إنما تحكي عن جدال ومجال واقعي بين التيارين السفسطائي والسقراطي ويبدو جلياً من هذه المحاورات انطلاق سقراط مما يذهب إليه السفسطائي. إذ كان مؤسسا على أساس النقد- وليس الناقد كالمؤلف- إذ أنه كان ينطلق من أفكار السفسطائية ويقوم بنقدها فيعزى إلى السفسطائية بهذا الشكل ما وصل إليه سقراط.

لقد جعلت السفسطائية الإنسان مقياس الأشياء جميعا؛ فبعد ما كان اليونانيون يبحثون عن تفاسير للمعرفة بداية في ردّها إلى عوالم غيبية ترتكز على المعتقد الديني المشحون بالخرافات الأساطير. رفض أصحاب الفكر الطبيعي هذه التفسير التي تجعل من الإنسان عبداً غير قادر تحرير نفسه من

سيطرة الطبيعة، ولا من سيطرة الأفراد الذين كانوا يملكون .مما أدى إلى طبقية المجتمع اليوناني. فأنزل هؤلاء الفلسفة والمعرفة من السماء إلى الأرض إلى الطبيعة- فتُمنح فرصة تغيير الظواهر والعمل على الاستفادة منها. وإن كان الفكر الطبيعي لم يتحرر هو الآخر من التفاسير الخرافية. غير أنه كان هاماً في هذه الحركة العمودية التنازلية مما سهل الحركة الأفقية من الطبيعة إلى الإنسان وهذا الأمر الذي ستقدمه السفسطائية بجعلها الإنسان مقياس الأشياء جميعاً. أصبح مقياس للوجود يقول بروتاغوراس " الإنسان مقياس الأشياء جميعا، ما وجد منها وما لم يوجد ". ولقد جاء هذا القول نتيجة قناعتهم أنه لا توجد حقيقة مطلقة بل حقائق نسبية تستند في وجودها إلى إيمان الإنسان وقوله بها. ومنه " فالعلاقة الحاملة لفعل الكينونة إما أنها غير موجودة، وإما أنها غير قابلة للإدراك، وإما أنّها غير قابلة للتوصيل والتبليغ، ومن ثم فهي ملقاة في حضن النسبية " (يوسف، 2010، ص 22). لقد انطلق السفسطائي في تأسيه للمعرفة ومنه للوجود من تصور أنطولوجي ووجودي مفاده: " لا يوجد شيء، وإذا وجد لا يُفْهَمْ، وإذا فُهِمَ لا يُفَهَّمْ ". إن هذا السلّب وهذه اللاءات لا يجعل من تفكيرهم سلبي، ولا يجعلهم من الشكاك بل مما يجعلهم سباقين إلى القول نسيبة المعرفة ودحض لفلسفة الوجود السقراطية يقول أبو حامد الغزالي في كتابه معيار العلم في فن المنطق " السفسطائية من أنكر العلوم الأولية والحسية، كعلمنا أن الاثنين أكثر من واحد، وكعلمنا بوجودنا، وأن الشيء الواحد أما أن يكون قديما أو حديثا، فهؤلاء دخلهم الخلل من سوء المزاج وفساد الذهن بكثرة التحير في النظريات "(الغزالي، 1981، ص 162) و لربما كان موقف الغزالي هذا على مذهب من ازدرى السفسطائية دون تمحيص دقيق. وهذا النفي في الوجود إنما يترتب عنه نفي في مطلقية المعرفة. وفي قدرتنا على إدراكها. ثم في قدرتنا على تعليمها. " يتدرج جورجياس في بناء منطق للعلامات يبدأ من نفي الوجود؛ وهذا النفي مرجعه الرغبة الصارمة في تقويض فلسفة الهيلينية، والتفكير الفلسفي الذي شيده فلاسفة الطبيعة؛ ثم يخلص إلى نفي ثانٍ إذا ما قام هناك دليل يثبت وجود الوجود يترتب عليه نفي إدراك هذا الوجود؛ فلكي نقر بوجود الأشياء يفترض أن تكون بينها وبين متصوراتنا صلة حتمية على نحو علاقة المعلوم بالعلم. ولما كان الوجود يمتنع أن يطابق تصوراتنا صار هذا الوجود في حكم العدم. وعليه فالمؤول هنا يتحول إلى قانون فحواه " نفي العلم بالوجود الذي يطابق الفكر "؛ ثم إذا ثبت أن حصل هذا العلم بالوجود يتبعه نفي ثالث بتجسيد في نفي التّبيين، وعدم القدرة على الإفهام والتبليغ "(يوسف، 2010، ص 22).

2)الإنسان مقياس الأشياء جميعا وفلسفة اللّغة:

إن النفي الثالث للتأسيس الوجودي، إنما يتأسس في جوهره على قصور العلامة في انزياحاتها وانزلاقاتها الإجتماعية النفسية. هذا لأن اللّغة جاءت بتعبير الغزالي " لما هو متعارف وأكثره من المحسوس " فهي لم تحمل جديد وإنما كانت من أجل إنشاء فعل تواصلي. وإن أمكن بحسب ابن خلدون أن نربط بين الدّال والمدلول فيما هو حسي. فأمر يبدو على غير ذلك على مستوى التصورات المجردة. إذ أن العلاقة بين الدال والمدلول ليست اعتباطية تحكمية. بل هي خاضعة لضرورة سيميائية ومنطقية. " إن هذا المنطق يؤمن بأن اللّغة حمالة علامات لا حمالة أشياء. وعليه فإن اللّغات والعلوم والقيم الجمالية والأخلاقية كلها تنهض على مبدأ المواضعة فهي تتعدد بتعدد التاريخ والجغرافيا "(يوسف، 2010، ص 23).

أ)الخطاب الحجاجي ينتج العلامة ويطورها:

لقد اكتسبت العلامة مكانة هامة في الفكر اليوناني وإلى يومنا، ويرجع الفضل للسفسطائية التي كانت تعتمد في التعليم على الخطاب. بما للعلامة في خطابهم من أهمية بما تحمله من قدرة. إذا لم يكن بمقدرهم التبليغ والإفهام كما جاء في النفي الثالث في مقولة الوجود- على ما ذكرنا سابقا- فهذا يدعوهم إلى تعدد الإنتاجات الخطابية وتعديد العلامات الدّالة وتطويرها. واستحداثها بما يلزم في ترتيب الحجج وأساليب طرحها على الخصم مستعينا في ذلك بالبعد الجمالي للعلامة حين يضعها ضمن صور بيانية محسنات بديعية تشد المُخَاطَبْ.

ب)الخطاب ينتج خطاب والعلامة تنتج العلامة:

إن خطابات السفسطائية بما تحمله من إيديولوجيات أنطولوجية، معرفية، سياسية واجتماعية. ما يستفز الفلاسفة والمفكرين اليونانيين مما أنتج خطابات فلسفية مضادة. وخير دليل على ذلك أن أكبر محاوري سقراط وأكثرهم كانوا سفسطائيون: إذ يبحث سقراط في رد السفسطائية عن علامة أقوى ومحاولة ربطها باللوغوس. إن العلامة المؤسسة للخطاب هي معيار الحقيقة. وبما تحمله هذه الأخيرة من بعد إنساني نتيجة نشأتها بالمواصفة على ما يذهب إليه "دي سوسير" فهذا يجعلنا يذهب مذهب شارل، "ساندرس بيرس"، حين جعل لزوم ارتباط العلامة بالإنسان، وما دامت هذه الأخير معيار الأشياء ينتج ذلك أن الإنسان معيار الأشياء، الأمر الذي أكدت عليه السفسطائية منذ القرن الخامس قبل الميلاد.

إن هذا الأمر يجعل العلامة منفتحة على التأويل منتجة للخطابات تتجاوز الغلق الذي وصفها به ابن خلدون وربط وجودها بما هو متعارف فكانت ذا دور اجتماعي متواضع عليها فحسب. لقد أصبحت العلامة حاملة للحقيقة، حامل للتفكير بما تفرضه من تأويل. يقول فتحي التريكي في كتابه، قراءات في فلسفة التنوع: " لم يعد المرء يقتصر على الاستماع ليتعلم، ويتصل بالحقيقة، أصبح يفسر الكلام، ويؤوله وينسقه، ويميز فيه الحقيقة عن الباطل " (التريكي، 1988، ص 44).

خاتمة:

إنّ ما جاءنا عن السفسطائية إنما ورد على لسان خصومها سواءاً ورد ذلك عن سقراط، أو عن أفلاطون على لسان سقراط، أو من أرسطو، فإن هذه الخصومة تدل على مكانتهم في أثينا وفي فكر الفلسفي عامة لاسيما بالعودة إلى خطاباتهم وعودة السيطرة منذ النصف الثاني للقرن العشرين. فكان السفسطائية سباقة في الفكر الغربي في الاهتمام بالعلامة وامتدادها على مختلف جوانب الفكر الفلسفي الوجود المعرفة، السياسية، الأخلاق. فالعلامة مقياس كل شيء. فكانت أساس الحجاج وأساس الاقناع.

شكلت السفسطائية في الفكر اليوناني محفزا حقيقيا لضرورة التّنظير لكل علم من العلوم فما إن جعلت "الإنسان مقياس الأشياء جميعاً " ما يفتح المجال أمام أي إنسان ليكون عارفاً وبدون معرفة. ومقولة جورجياس هذه فتحت المجال أيضا لاختلاف الرأي وانتشار النزاع، وتعدد الرؤى والعقائد. فكان بذلك الفكر السفسطائي قدم الخير لشيئين اثنين: الأول لتطور البلاغة بما تحمله من معنى يشير إلى القدرة على اختيار اللّفظ وبناء الجمل والكفاءة في التفسير والتبليغ والتعليم والحجاجي؛ مع ما تحمله من الصور البيانية وبديعية تحتج له العواطف فتذهب إلى ما يذهب إليه النصّ.

الثاني هو انتشار دروس السفسطائية واحتجاج فيها لجميع مجالات الحياة في المجتمع اليوناني مع ما تحمله من أفكار وما تقترفه من سلوك كالتعليم مقابل الثروة. وليس المعرفة من أجل المعرفة كما يرجو آباء الفلاسفة اليونان " سقراط، أفلاطون، أرسطو "، فكان لابدّ من التنظير للاستدلال وللخطاب ولكل علم من العلوم. فجاء كتاب الخطابة (الريطوريقا المتضمن في كتاب الأورغانون تنظير للحجاج السليم، وليس الحجاج المغالط السفسطائي) –برأي أرسطو وليس في هذا شيء مما نذهب إليه- ، و " عن ذلك الكتاب قال شيشرون: " الخطباء القدامى كافة منذ " تيزياس " (tisias) وهو أولهم وواضع

الصناعة جمعهم أرسطو في مصنف واحد أورد فيه بعناية كبيرة اسم كل واحد منهم وعرض الآراء المنسوبة إليه بوضوح ودقة وأنارها بشروح ممتازة ولقد فاق بأناقة أسلوبه ودقته الأساتذة الأوائل إلى حدّ جعل النّاس لا يبحثون عن آراء [هؤلاء الفلاسفة] في كتبهم وجعل كل من يريد معرفة في موضوع يلجأ إليه باعتباره شرحاً أيسر تناولا فاهتمام أرسطو بالخطابة قديم "(نظريات الحجاج، ص 86). الأمر الذي يشهد أن كتاب الريطوريقا لأرسطو ، ليس إلاّ ثمرة لجهود السفسطائيين بالرد عليهم . وليس دور الناقد بأهم من دور الكاتب .بل أن هذا الأخير يجد الفكر ويبدعها أما الأول فإنّما يجد المادة جاهزة ليجهز عليها بالرفض والنقد حينا ، والإثراء حينا فينسى الأصل ويمجد الفرع .

قائمة المراجع:

- أبو حامد الغزالي، معيار العلم في فن المنطق، دار الأندلس، ط3، بيروت 1981
- أحمد يوسف، البلاغة السفسطائية وفاتحة الحجاج، كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته- دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة. تق، حافظ إسماعيل العلوي، ج2، عالم الكتب الحديث د،ط، الأردن، 2010.
- فتحي التريكي، فلسفة التنوع، د، ط، الدار التنوير للطباعة والنشر،بيروت، 2009.
- فريق بحث،كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته- دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة. تق، حافظ إسماعيل العلوي، ج2، عالم الكتب الحديث د،ط، الأردن، 2010.
- كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته- دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة. تق، حافظ إسماعيل العلوي، ج3، عالم الكتب الحديث د،ط، الأردن، 2010.
- كريستيان بلانتان، الحجاج، تر: عبد القادر المهيري، مر. عبد الله صولة، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2010.
- زهور حمر العين 2020/12،الحجاج المفهوم والأسلوب، مجلة الخلدونية للعلوم الانسانية الاجتماعية ،12(02) ،11-19 .